20100618-0001a-M

النهار

الجمعة ١٨ حزيران ٢٠١٠ - السنة ٧٧ - العدد ٢٤٠٧٧

مقتطف

الأمـل الـخـجـول

لين معلوف

في ما يأتي مقتطف من نص للصحافية والمستشارة في "المركز الدولي للعدالة الانتقالية" لين معلوف بعنوان "ذاكرات جماعية ومصير الضحايا" ضمّه كتاب "لبنان، ذاكرات الحرب في لبنان (١٩٧٥-١٩٩٠)":
اطلقت المدرّسة وداد حلواني (٣١ عاما) في ١٧ تشرين الثاني من العام ١٩٨٢ نداء عبر الأثير الإذاعي حيث توجهت الى اولئك الذين "فقدوا" افرادا من اسرهم، بيد انها ظنّت مبادرتها لن تلقى صدى. تستعيد تلك اللحظة قائلة: "اعتقدت ان شخصين او ثلاثة على الأكثر سيلبّون النداء على ان نشكل معا وفدا يسعى الى لقاء المسؤولين طلبا للمساعدة. كنت على يقين ان التحرك الجماعي سيجعلنا اكثر نفوذا". ترقبت حلواني حضور حفنة اشخاص، غير انها فوجئت بوصول ما يزيد على مئة شخص من الرجال والنساء وكان كل واحد من هؤلاء فقد فردا او اكثر من انسبائه. تردف: "شعرت وكأن جميع متاعب الأرض القيت على كاهلي وكاهل اولادي. صدمت برؤية الناس يتجمهرون ولم يكن احدهم يعرف الآخر". لم تكن حلواني تشكّ في ان وضعها كوضع آخرين على الرغم من الاختلاف الديني والجغرافي والسياسي، ادركت ان مواطنين سواها شعروا بالوحدة والافتقار الى الوسائل الناجعة للبحث عن احباء في وسط العنف المستشري.
اندلعت الحرب في نيسان من عام ١٩٧٥ وتخللتها سلسلة من المجازر وعمليات قتل وخطف وحركة نزوح قسرية. بين عامي ١٩٧٥ و١٩٧٧ افردت الصحف ابوابا خاصة لنشر محاضر الخطف الذي كان حقيقة ملموسة خلال العامين الأولين من الحرب وتسبّب في معظم الحالات باختفاء الضحايا. مارست جميع المجموعات المسلّحة (الميليشيات والجيوش) عمليات الخطف هذه وجرت في معظم الأحيان بالتعاون مع فئات عدة (كقيام الميليشيات اللبنانية وافراد من الجيش اللبناني بتسليم الضحايا الى القوات السورية او الاسرائيلية).
كان السواد الاعظم من الضحايا من المدنيين اختطفوا عند الحواجز وفي منازلهم او في الشوارع. اختطفوا لأسباب عدة، بغية مقايضتهم بسجناء آخرين او من اجل الابتزاز المالي او بداعي الانتقام حتى. يعتقد بعض المراقبين، ان تلك العمليات هدفت ايضا الى اطلاق حركات نزوح داخلية من شأنها ان تؤدي الى فصل الناس وفق انتماءاتهم الطائفية.
في موازاة عمليات الخطف، اختفى اشخاص كثيرون في خضم المجازر والمعارك ودُفنوا في مقابر جماعية، او ألقي بهم في البحر احيانا وفق تقارير غير رسمية. استمرت عمليات الاخفاء في اعقاب نهاية الحرب اي بعد عام ١٩٩٠، وإن تراجعت وتيرتها.
فُقد ١٧٤١٥ لبنانياً بين عامي ١٩٧٥ و١٩٩٠، بحسب ما ورد في احد محاضر الشرطة نشر في عام ١٩٩١ . على الرغم من التمسّك بهذا الرقم، ثمة ما يدعو الى الاعتقاد بأن البحث التوثيقي المعمّق من شأنه ان يساهم في خفض هذه الحصيلة المستندة الى الشهادات التي أدلى بها انسباء المفقودين الى الشرطة، في حين لم تستكمل بأيّ تحقيق. ثمة مرجع اخر يمكن الركون اليه من اجل تقويم حجم هذه المشكلة، وهو عدد الحالات التي افصح عنها انسباء المخطوفين امام لجنتي التحقيق الرسميتين اللتين شكلتا في عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠١. في حين سجّلت اول لجنة ٢٠٤٦ حالة، لم تسجّل الثانية سوى ٧٨٠ حالة بعدما تم فرض معايير اكثر تشددا في الحديث عن عملية اخفاء. غير ان من المرجّح جدا ألا تعكس هذه الأرقام الاخيرة واقع المشكلة هي الاخرى، نظرا الى ان عائلات كثيرة احجمت عن اعطاء المعلومات في شأن الحالات التي اختبرتها بنتيجة غياب شرعيّة اللجان، ناهيك بتفويضها الضيق.
لكن ذلك لا ينفي ان بروز مسألة ضحايا عمليات الاخفاء وعائلاتها، من شأنه ان يذكر بتبعات النزاع الكثيرة على الشعب اللبناني المتروك الى تحمّل ارث مرهق بدأ اليوم بمواجهته فحسب. خلصت دراسة حديثة اجرتها اللجنة الدولية للصليب الاحمر الى تحمل ٧٥ في المئة من المواطنين اللبنانيين اذى "شخصيا" بسبب النزاع المسلح. في حين لا يشمل هذا الرقم الاشخاص الذين تحمّلوا تبعات الحرب بطريقة غير مباشر.

جماد الحداد وتحول العائلات ضحايا

"فُقد" عدنان، زوج وداد حلواني، في الرابع والعشرين من ايلول من عام ١٩٨٢. اختطف من منزله، امام عيون زوجته وابنيه. لم يرغب في ان يشغل بال ذويه فأكد لهم انه سيعود بعد خمس دقائق، غير انه لم يرجع. تشير السيدة حلواني الى انها تتندم اليوم على عدم اقدامها على تحريك ساكن في تلك اللحظة "ربما هرع

الجيران لنجدتي في حال صرخت او صحتُ بأعلى صوتي وتسببت بجلبة، ربما كان الخاطفون تركوه وشأنه".
اضطرّت حلواني الى مواجهة القلق المتأتي من الحيرة، ناهيك بأنها لم تحصل على اي معلومات على الرغم من مرور ايام عدة، على عملية الخطف. اختبرت السيدة وضعا صعباً للغاية. صارت اما وحيدة لا يسعها توفير اي تفسير لأولادها في خصوص "اختفاء" والدهم المباغت. لا تزال وداد بعد مرور ثلاثة عقود تراسل زوجها وتتحدث عنه مستخدمةً صيغة الفعل المضارع. لن تستطيع الانصراف الى الحداد، على الاقل الى حين حصولها على برهان على وفاته. رأى جيل جديد النور في عائلتها وصارت جدة، بيد انها على الرغم من هذه التطورات لا يمكنها ان تقرّ بأن زوجها توفّى فعلا.
ثمة اختلاف بين التأقلم مع وفاة شخص محبوب ومع اختفائه. يسمّي علماء النفس هذا الوضع "تجميد الحداد"، وهو يجعل أسر المخفيين تتحول ضحايا بالمعنى الكامل. ان اقرباء المفقودين هم في معظم الأحيان من النساء اللواتي يعانين وضعا قانونيا على حدة ولا يلبثن ان يطالبن بلفتة خاصة. حرمت وداد كمئات النساء عبر العالم من حقوقها، وهي تعيش في واقع الحال كأرملة في حين لا يُعترَف بها كذلك، ولا يمكنها تاليا نيل حق الوصاية على اولادها او الحصول على الإرث او الزواج مجددا. تحرم هذه الفئة من النساء من حقوقهن المشروعة بوصفهن ارامل في حين تضطر ايضا وعلى نحو عام الى اعالة اسرهن وقد لا يتمتعن جميعا بالمؤهلات للقيام بذلك.
(...)

انجرار لبنان المتعمّد صوب النسيان

شهد لبنان خمسة عشر عاما من العنف، ترافق مع تدهور تدريجي لأسس الدولة وتدمير للاقتصاد، فبات الشعب اللبناني متعطّشا للعودة الى ادنى اشكال الحياة الطبيعية، وادى ذلك عمليا الى تعليق كل محاولة جدية لجعله يواجه التروما التي شكلها تاريخه الحديث.
على مر اعوام الحرب، شهد لبنان نزاعات متلاحقة وغرقت منطقة تلو الاخرى في العنف، وكان مشاركون عديدون ينخرطون في الصراعات المسلحة في حقبات مختلفة، لهذا السبب كان صعبا على اللبنانيين ان يصدّقوا ان الحرب انتهت فعلا هذه المرة وليس قولا فحسب. والحال، ان المصطلحات التي استخدمت خلال تلك الاعوام من مثل اعتماد "الحوادث" للكلام عن الحرب، عبّرت عن الافتقار الى التحديد الزمني والمكاني في مقاربة هذه الاضطرابات. كان اللبنانيون في عام ١٩٩٠، خاضعين على نحو كبير للحال السائدة. ادى غياب نهاية واضحة ونهائية للحرب، فضلا عن انتشار الرضوخ، الى جعل المجتمع برمته يغرق في منطق النسيان الطاغي. رغبت الطبقة السياسية المؤلفة في قسطها الاكبر من امراء حرب سابقين في طي الصفحة، وقدّمت هذا المسار كشرط مسبق وضروري لإحلال المصالحة والوحدة الوطنية.
في آب من عام ١٩٩١، صدّق قانون العفو العام على هذا المنطق واعطي الاطار القانوني ليستمر. غير انه في اطار عمليات الاخفاء، تجدر الاشارة الى ان احدى فقرات القانون تستثني من منحة العفو "جميع الجرائم المتمادية المستمرة". والحال ان عمليات الاخفاء تعدّ جرما متماديا، وهذا جانب على اهمية قصوى.
(...)
بعد مرور نحو ثلاثين عاما على خطف زوجها، لم تعد وداد حلواني تأمل في عودته حيا. غير انها لا تزال تتشبث بمعرفة تفاصيل ما جرى له ومعاناته، فضلاً عن هوية الخاطف. تريد ان تعرف إن كان حظي بمأتم وفي ايّ مكان. على الرغم من ان الأمل خجول جدا، لا تزال تنتظر ان يتم العثور على جثته وان تستعيدها لتستطيع بمساعدة ابنيها وحفيدها، ان توفر له مأتما يعيد اليه كرامته ويساهم في إحقاق نضالها الشخصي.

ترجمة ر. ر.

جميع الحقوق محفوظة – © جريدة النهار ٢٠١٠